

صور الصراع في رواية "ص" لزرياب بوكفة قراءة في المضمون

د. سامية إدريس

جامعة عبد الرحمن ميرة - بجاية

Abstract : This article aims to stand up to some aspects of the conflict in the contemporary Algerian novel through the novel "S" by Zeriab Boukeffa. The novel was published in the period after the 1990s, but it portrays this bloody era, which witnessed a violent conflict on several levels. The novel "S" is not limited to describing the conflict and its victims in the style of the 1990s, but is characterized by the analysis of the parties to the conflict and condemnation of the authority represented by its security agencies. The research provides a substantive reading of the conflict images in the novel.

تمهيد: لا ريب أن الصراع ظاهرة قديمة قدم الإنسان، حيث تمثل صفة ثابتة فيه، إذ لم يخلو عصر من العصور من مظاهر الصراع بمستوياته الكثيرة، وأبعاده المتشعبة، والأدب كونه خطابا تمثياليا وتعبيرا عن خلجات الإنسانية، فمن اليسير إثبات ارتباطه بالصراع، حيث يشكل الأدب فضاء للصراع وأداة له عندما يتم تفعيله لصالح طرف ضد طرف في شبكة تعالقات اجتماعية وايدولوجية غاية في التعقيد. بصيغة أخرى؛ إن الصراع في العالم الواقعي يخرق الأدب كذلك. فالأدب مرآة للواقع، وفيه تنعكس الظاهرة الصراعية بكل زخمها بفضل خاصيته التمثيلية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فالأدب امتداد للواقع وجزء منه، حيث يشكل ظاهرة اجتماعية تاريخية إلى جانب كونه فنا، ومن هذه الزاوية، يكون الأدب نفسه عنصرا فاعلا ضمن ظاهرة صراعية أشمل.

يحيل العالم المتخيل لرواية "ص" لزرياب بوكفة إلى واقع مرجعي يحتضن شروط مجتمعية صراعية متعددة الأبعاد والأوجه، ويتأثت بتفاعلات ملتبسة مع

الوضعية السوسيو تاريخية لجزائر ما قبل 2000. وأبرز ما يميز هذه الوضعية، كما نعلم، حرب أهلية شنيعة وصراع على السلطة والمصالح تقع في صراع ديني وايدولوجي.

تقدم الرواية خطابا مختلفا عن الرواية التسعينية التي تتميز بتسجيلية شبه توثيقية، وأحادية خطاب الإدانة والتنديد ضد الإرهاب والتيار الإسلاموي، وتنزيه المثقف/ الضحية، يختلف الخطاب الروائي الجزائري اللاحق عامة بما نتلمسه فيه من تركيز أكبر على نقد النظام، وتحميل السلطة القائمة المسؤولية الأكبر لما حدث وما يحدث في الجزائر.

الفضاء العام لرواية "ص" لزرياب بوكفة: يصور التخييل الروائي في "ص" لزرياب بوكفة تورط أطراف في الجيش في تربية الوحش المتمثل في روح التطرف التي تغذي الجماعات الإرهابية، وتوجيهها لأغراض تخدم مصالح دينية لعباد النفوذ والسلطة وتجار الدم على حساب مآسي وآلام ودمار حيوات الآلاف من الأبرياء والناس البسطاء من عامة الشعب. وتدور أحداث رواية "ص" في سبتمبر 2011 ذات خريف آخر للفتنة، في جزائر مضت أغاديتها خيبات على الموتى. يعاند الراوي سؤالا جارحا عن قتلى ومفقودي الحرب الجبانة التي أتت على كل احتمالات الربيع ويتعذب بسؤال عن الأحباب الذين صاروا مجرد ذكرى ومضوا بلا رجعة.

تتألف الرواية من ثمانية مقاطع يتقاسمها خطان سرديان؛ سرد ذاتي بضمير المتكلم يقص فيه البطل مأساته خوفه ووحدته. وسرد موضوعي يصطنع الأسلوب الصحفي في تقارير وأخبار وشهادات وتصريحات وأرقام عن واقع السنوات الأليمة في الجزائر.

تنسب هذه المقتطفات إلى صحف وطنية وهيئات حكومية ودولية، وإلى شخصيات سياسية وعسكرية فاعلة ولا تتبع بالضرورة ترتيبا كرونولوجيا لكنها تغطي

حقبة هامة من تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر محاولة رسم معالم تاريخ غير رسمي كما ألمحت إليه فاتحة الرواية. تشمل هذه الحقبة أواخر حرب التحرير والاقترال على السلطة بعيد الاستقلال مباشرة بين جيش الحدود وجيش التحرير الوطني، وتمر على بعض الأحداث والتواريخ المتعلقة بما يعرف بأحداث أكتوبر 1988 فدخل الجزائر في نفق الإرهاب والعنف الأعمى ليكون آخر خبر موثقاً بتاريخ 22 جويلية 2001 عن مجزرة ضمن قائمة مجازر واختناقات في قرى ومناطق تليازة تحديداً.

أما الأطروحة التي توجه كلا من خطي السرد فهي تأكيد ضلوع السلطة وأجهزتها الأمنية في عمليات التقتيل للعزل ونسبتها للإسلاميين بغية إدامة نار الفتنة، واستفادة تجار الدماء من تعفن الأوضاع لتحقيق مكاسب مادية مهولة.

تعيد الرواية طرح سؤال "من يقتل من في الجزائر" بجرأة ونفاذ، وتعالجه فنيا وإنسانيا من خلال قصة البطل الذي وجد نفسه وحيدا بعد مقتل أخيه الذي كان جنديا بأيادي الغدر، وقد كان هو نفسه يدا غادرة ملوثة بالدم، إذ ذكر له أكثر من مرة في غمرة سكره عن مجازر شارك فيها ضد من يعتبرون أهالي الإرهابيين وموالين لهم، وكان فيهم النسوة والأطفال والشيوخ. إثر وفاة الأخ تموت الأم بعده حزنا، وقد كان يحبها حتى العبادة فما أطاقت العيش بعده، ويقتفي أبوه أثرهما "دون سبب". يهجر البطل من طرف حبيبته صابرين التي تتخلى عنه سعيا وراء طموحها وتهاجر إلى فرنسا حيث تتزوج من مهاجر جزائري أنجبت منه طفلا لكنها طلقت منه لما أراد منها ترك العمل للتفرغ لتربية الطفل، وغافلها الأب ليأخذها منها ويهرب به إلى الجزائر، في قرية أغبال بتيبازة، وهناك يلقي حقه مع رضيعه على أيدي جماعة من رجال الجيش تلقت أوامر بارتكاب مجزرة. تتشابك خيوط الحبكة عندما تلقي صابرين بالبطل إثر عودتها للوطن، ومرة فأخرى تتجدد شعلة الحب في قلبه. تقص صابرين عليه بقلب أم كسير حكاية طفلها، فيقرر وقد ساوره شك صار يقينا بأن أخاه ربما يكون قاتل ابنها،

يقرر الذهاب إلى تيبازة والبحث عن الحقيقة حول مقتل أخيه، والعثور على قبر الطفل من أجل حبيبته.

تبدأ رحلة البطل إلى قرى تيبازة برفقة صديق من أيام الدراسة الجامعية، ويتوصل بعد منعرجات كثيرة إلى الثكنة ثم الاتصال بصديق أخيه في الفرقة، يعهده هذا الصديق بمحادثته لكنه يخلف موعدا بالعاصمة، ويتخلف عن آخر في الثكنة مرسلا له صديقا له بطرف فيه صور ورسائل أخيه لم يبعث بها بعد. يعود البطل إلى حبيبته وفي نيته مكاشفتها بالحقيقة حول هوية قاتل ابنها، ويحرق كل تذكارات أخيه من صور ورسائل ليكون آخر من يوارى التراب رمادا على قبر أخيه كما أوصته أمه. ويقابل صابرين حاملا لها في منديل ترابا من قبر ابنها، يصبح لها كل الوطن. تقرر صابرين العودة مجددا إلى باريس تاركة له حرف صاد يرسمه على زجاج نافذة غرفته الموحشة. تتحول "ص" في مستوى ثان للقراءة إلى رمز للجزائر وابنها المنحور رضيعا هو الغد الذي قد مضى.

صور الصراع في الرواية : تصور رواية "ص" عالما ملؤه الرعب، تلونه الدماء وتلوّثه الجريمة، ليس بأيدي الإرهابيين المتطرفين هذه المرة، وإنما بأيدي "القوات الخاصة" التابعة للجيش الجزائري، تلك القوات التي تخصصت في مكافحة الجماعات المسلحة ولكنها وجهت كذلك من طرف بعض النافذين في الجيش ضد المدنيين العزل.

بجرأة كبيرة تجهر الرواية بالسؤال الذي أرق كثيرا في سنوات القتل الأعمى، سؤال "من يقتل من في الجزائر؟". هذا السؤال الذي تعالت الأصوات في طرحة إثر مجازر رهيبية ارتكبت في حق أحياء وقرى معزولة أبيدت عن آخرها في جوف الليل وهي على مقربة من ثكنات ومراكز عسكرية، لم يهب منها أحد للنجدة. طرح هذا السؤال من أطراف معارضة للنظام، ومن أطراف خارجية غير حكومية في الأغلب،

تلاحظ ما يحدث وتعلق عليه بارتياب كبير. وشيئا فشيئا بدأ الارتياب يتحول إلى يقين مع صدور تحقيقات وشهادات من ضبط فارين من الجيش الجزائري رفضوا تلطيخ أيديهم بدماء الأبرياء.

توثق هذه الشهادات التي ظهرت للعلن حالات إجرامية ارتكبت على العزل بأيدي القوات الجزائرية، منبين هذه الشهادات القائمة كتاب "الحرب القذرة" للبيب سوايدية¹، وهو ضابط سابق في القوات الخاصة. صدر هذا الكتاب لأول مرة باللغة الفرنسية سنة 2001، ونحن نرجح أن الروائي قد أنجز روايته متأثرا بما ورد فيه من وقائع رهيبية كانت الدافع لإعادة تشكيل أجوائها تخييليا، وإن كنا نؤمن أن الخيال مهما بلغ يظل ضئيلا أمام جبروت الواقع.

اختار الروائي أن تكون شخصيته الرئيسية هي أخ لجندي من القوات الخاصة، كان يشاطره في عطله القصيرة سهرات السكر وأخبار الجريمة، بيده قتل طفل صابرين حبيبته، ولسانه نطق بأهوال حرب قذرة في سبيل المال والسلطة. «أستذكر كل حرف من قصص أخي:

. أنتنا الأوامر يوما بقتل عشرين من سكان أحد قرى أغبال غير بعيد عن قوراية، وجدنا عشرة جمعناهم ثم رميناهم في حفرة قد أعدناها من قبل ثم ردمناهم فيها أحياء، أما العشرة الأخرى الباقية فلقد التحقت طبعاً بالجبال كما هو مبتغى أصحاب النفوذ.

. ولم كل هذا؟

. على الإرهاب أن يستمر حتى وإن مات الجميع فيجب إجبار آخرين على

حمل السلاح، هكذا هي اللعبة، فلا أفضل من حرب قذرة للغنى وتوسيع النفوذ»²

تتناص الرواية مع كتاب سوايدية على أكثر من مستوى، وتتخذ من هذه الشهادة معبرا لدهاليز التاريخ "غير الرسمي"، التاريخ السري الذي ينقض روايات

التاريخ الرسمي ويبين زيفه وكذب دعاويه. يعبر الاستهلال الذي صدرت به الرواية بجلاء عن الصراع بين تاريخ السلطة وتواريخ أخرى هامشية ومكبوتة، وهي مقولة لبلازك، الروائي الواقعي الفرنسي، ونصها: «يوجد نوعان من التاريخ: تاريخ رسمي كاذب، وهو التاريخ الذي لقنا إياه في المدارس، وتاريخ سري، يتعين علينا البحث عنه، لان فيه تكمن الأسباب الحقيقية للأحداث، وهو تاريخ مخجل حقا»، وكأن الروائي هنا يتصدى لمهمة المؤرخ، أو بالأحرى يقوم بما تخطى المؤرخ عن القيام به، فيحمل على عاتقه عبء التاريخ المظلم، ويستنتقه، يبعثه حيا ليعري التاريخ السلطوي ويكشف عوراته.

يؤدي الاستهلال هنا بوصفه «عبارة توجيهية تمتلك العديد من الوظائف النصية تبعا للموقع الذي تحتله في بناء عالم الحكاية، إن على مستوى توجيه مسار القراءة واختزال (وأیضا احتواء) جانب من تصورات المؤلف للكتابة الروائية، أو على مستوى اختزان (وأیضا تلخيص) منطق الحكاية واستحضاره ضمن ملفوظ له نسق خاص في البناء والتركييب والدلالة»³، يؤدي إلى إضفاء أهمية خاصة على الأسئلة التي تطرحها الرواية باستعارة صوت من خارج النص إلى داخله، ويضعنا في مواجهة القضية المركزية التي تتحكم في إنتاج الخطاب الروائي. تدخل الرواية في علاقة ملتبسة مع التاريخ، تاريخ ليس بـماض بعيد عنها فهو أقرب للراهن، ما تزال معاناته حاضرة في الأذهان والأجساد. يستنطق المتخيل الروائي التاريخ السري للقوات الخاصة من خلال أخ الشخصية الرئيسية، التي انتهى بها المطاق على نفس أسنة الخيانة التي كانت تطعن بها، وتصوغ هذا التاريخ المخجل لتترك تاريخا رسميا كاذبا، ينزه النظام الجزائري والجيش من دماء غير القتلة من الإرهابيين. تكشف هذه الإسقاطات عن جدلية الرواية والتاريخ، حيث تظهر الرواية نقدا للسلطة وللتاريخ السلطوي بإبرازها لتواريخ أخرى مهمشة، «إن التاريخ، غالبا، علم سلطوي وعن

السلطة، يدور حول مقولتين سلطويتين، مضمونا، هما الانتصار والهزيمة، ينتج ويعاد إنتاجه في مؤسسات سلطوية، لا تختصر في الرقابة حاذقة كل ما لا تريد ومبرزة ما تشاء وترغب»⁴.

لا يظهر الصراع بين التواريخ الذي يفصح عنه الاستهلال فقط في التخييل السردى القائم على التشخيص، فقد بنيت الرواية بالمزاوجة بين نسقين خطابيين، أولها حكاوي يروي قصة رجل ارتكب أخوه وهو مجند في القوات الخاصة مجازر أودت بحياة العزل الأبرياء بمن فيه زوج وطفل محبوبته قبل أن يُقتل هو الآخر غدا من طرف زميله في الجيش تاركا له المكاشفات المروعة، والثاني نصفه بالصحفي، وهو عبارة عن نصوص واستشهادات منسوبة لشخصيات مرجعية لإضفاء طابع الوثيقة عليها، مع أنها ليست كذلك في حقيقتها، لكن أسلوبها مباشر، وتتخذ شكل تصريحات صحفية مجتزأة. يتحاور النسقين الحكائي والصحفي ضمن الخلفية التاريخية نفسها، ويشكل كل منهما رجوع صدى للآخر. والحال أن النسق الثاني المشكل وفق تقنية الإلصاق، يدعم الرؤية التي تشكل النسق الأول، ويصح على رواية "ص" ما قيل في سياق آخر حول رواية "ذات" لصنع الله إبراهيم، «رغم أن الصورة التي يقدمها الكاتب بهذا الأسلوب ينتمي إلى ما كان يسمى في النقد الأدبي بالمذهب الطبيعي الذي يتلذذ بعرض مظاهر القبح وجرح الحس وتعرية الواقع في أشد مواضعه حساسية، إلا أن التقنية التي يعتمد عليها هنا ليست "طبيعية"، بل هي محدثة إلى حد كبير. إذ يتمثل إبداعه في تشغيل آلية التناوب لصناعة مونتاج محكم بين السرد القصصي السوداوي من جانب وتعزيزه غالبا باختيار مواد النفايات المرتبطة به من جانب آخر، وترك الدلالة الكلية لمزاج القارئ في نهاية الأمر»⁵. يلعب القارئ دورا فاعلا في الكشف عن النظام الداخلي الذي يحكم النسق الخطابي الصحفي، والربط بينه وبين النسق

الحكائي ضمن وحدة السرد، والكشف عن الوظيفة الجمالية للتناوب بين النسقين ضمن المتخيل الروائي.

يرد الفضاء النصي للرواية مقطعا إلى ثمانية نصوص مرقمة، تتفاوت في عدد صفحاتها، وتتوزع بين النسقين فالنصوص 1، 3، 5، 7 و 8 تمثل النسق الحكائي في حين تشمل النصوص الباقية النسق الصحفي. يصور النص الأول عودة صابرين مطلقا من الغربة بأومة جريحة فقدت طفلها، ولقاء الشخصية الرئيسية بها ذات خريف لتقضي لقاءاتهما المتكررة إلى وضعه في قلب المكاشفة والفجعة حين يثبت لديه تصادف أماكن وتواريخ مقتل ابن صابرين والمجزرة التي شارك فيها أخوه المغدور، وهذا ما يدفعه في النص 3 للقيام برحلة إلى قرى شرشال للبحث عن قبر ابن صابرين وحقيقة مقتل أخيه في الثكنة، حيث يتصل بصديق قديم له، من سكان المنطقة، يرافقه في رحلته تلك. يقدم النص 2 مجموعة مقتطعات تدور حول تيمات بعينها، وتنسب لرجال في السلطة وآخرين من المعارضة ولمنظمات دولية، فتزد طائفة منها حول إشكالية تحديد عدد ضحايا الأزمة واستحالة ذلك، لتستطرد بأحاديث تبدو جانبية عن كرامة الأولياء وتعلق الرئيس بالزوايا في نوع من المفارقة الساخرة، ثم يورد مقتطعات لخطاب معارض يدين "دولة الظل" و"حكومة الظل" التي فصلت سياسة الوئام المدني على مقاس مصالحها، وينحدر للحديث بعدها عن ملف المفقودين ليذكر عقبها جملا ومقاطع منسوبة للرئيس فحواها العفو العام والشامل عن كل من أضر بالبلاد والعباد من إرهابيين ولصوص وحركى. يفتح النص 4 بقول منسوب لمفتي الديار المصرية يؤكد عبثية القتل في الجزائر وتليها فقرة طويلة نسبيا منسوبة لنقيب من الحرس الجمهوري يؤكد على مسؤولية "قوى الشر داخل المؤسسة العسكرية" على المجازر ويعمم المسؤولية على الجيش والأجهزة الأمنية برمتها، وكذا قوى مدنية متواطئة، تتوالى بعدها تباعا معلومات مؤرخة ومرتبطة كرونولوجيا تحيل

إلى استيلاء جيش الحدود على السلطة بعد الاستقلال وتصفية المعارضين بالاعتقال والنفي، ثم يأتي بشهادة عن أمير جماعة إرهابية فار يستغرب من يقاتل بعد مقتل كل من كانوا تحت إمرته، يليه اعتراف ضابط سابق بالمشاركة بنفسه في مجازر نسبت للجماعات الإسلامية نقله الصحفي عثمان تزغارت، ويأتي تصريح لأرملة الرئيس بوضيف حول النقائص في التحقيقات حول اغتيال زوجها في عنابة، ليعود السارد إلى وضع تواريخ محددة مرتبة كرونولوجيا لأحداث تحيل إلى ميلاد المعارضة السياسية في وجه النظام الذي انتهج أسلوب الاغتيالات والتعذيب لكل معارض، وذلك مع ميلاد جبهة القوى الاشتراكية في 29 سبتمبر 1963 و« إعلان الكفاح المسلح ضد دكتاتورية بن بلة وبوخروبة»⁶، وبعد بضع مقاطع تتضمن كلها مسؤولية النظام الجزائري عن عمليات التقتيل، يعود السارد لإيراد التواريخ بأحداثها والتي تخص اعتقال وإعدام معارضي النظام والانتقال العسكري لبومدين وتليها شهادة لضابط لاجئ في بريطانيا عن تورط أطراف رسمية في عمليات هروب ضخمة للمساجين من تازولت، سركاجي والبرواقية ليلتحقوا بالجماعات المسلحة وتبدأ المجازر، ويؤتى بتصريح لمنظمة أجنبية تحيل إلى تصفيات داخل الجيش لضباط عسكريين على يد مديرية المخابرات، وبتصريحات مماثلة تؤكد اطلاع أجهزة المخابرات الغربية على حقيقة ما يجري في الجزائر وتواطؤها بالصمت خدمة لمصالح دولها. يدرج السارد بعدها سلسلة تواريخ لاغتيالات طالت شخصيات معارضة وتاريخية كخيدر وكريم بلقاسم، وإخفاء المتورطين في العمليات، ويستمر التأريخ للممارسات القمعية للنظام الجزائري ضد معارضيه إلى غاية أحداث أكتوبر 1988 التي قتل فيها الجيش الشباب واعتقل منهم وعذب. وقد نسبت الأحداث إلى افتعال أطراف نافذة في النظام نفسه تحاول من خلالها تسوية نزاعات داخلية، وتتوالى الشهادات حول أحداث العنف ومسؤولية أجهزة النظام فيها. وفي النص 6 يتم التركيز

على سلسلة تواريخ لأحداث المجازر ضد المدنيين في منطقة تيبازة، أول تاريخ هو 03 نوفمبر 1995 وآخرها 22 جويلية 2001، وتتخلل هذه التواريخ أخبار وتقارير وتصريحات عن شخصيات نافذة في الجيش أثرت ثراء فاحشا، وفشت حسابات مصرفية في بنوك فرنسية وسويسرية وغيرها، كما يعرف بعضها بشخصيات شباب ورجال اقتيدوا من طرف قوات الأمن ليختفوا بعدها من غير رجعة. يقص النص 5 ذهاب الشخصية الرئيسية رفقة الصديق إلى أغبال حيث الثكنة التي كان يعمل بها أخوه، مروراً على منعرجات كثيرة، شهدت مجازر أودت بحياة كل عائلة الصديق، ولما خاب مسعاه في ثكنة أغبال توجه بعد يوم إلى المركز العسكري بالداموس بتوجيه من الميقيري، صديق أخيه وصاحب المقهى الذي استراحا فيه وتعرف عليه، وبعد لقائه بزميل أخيه ورفيقه عاد بقناعة ضمنية مفادها أن هذا الرفيق هو عينه قاتل أخيه، واكتفى بالصورة التي تركت له في المركز العسكري وبحفنة تراب من قبر ابن صابرين، في النص 7 يسلم صابرين حفنة التراب وتطالعه هي بقرار عودتها إلى باريس، وتختتم الرواية في النص 8 على مشهد يشبه بدايتها حيث يبقى الخريف خريفاً، وتظل الشخصية الرئيسية وحيدة تتجرع أوجاعها وخيباتها.

تعزز نصوص النسق الصحفي أهوال النسق الحكائي وتطرحها في إطار أشمل حيث يمكن اعتبارها إجمالاً إدانة موثقة بالتواريخ والشهادات للممارسات القمعية والدموية والعنيفة للنظام الجزائري، والتي بدأت باغتصابه السلطة بعد الاستقلال مباشرة بالقوة على يد جيش الحدود، وعدم توانيه عن تصفية معارضيه واغتيال شخصيات تاريخية بارزة وأخرى من عامة الشعب لتثبيت أركانه، وعندما صار هذا النظام مهدداً من الداخل بسبب نزاعات بين أطرافه، لم يتردد هؤلاء عن التضحية بالشباب بافتعال أحداث أكتوبر 1988 لتسوية هذه النزاعات، وهنا أثبت هذا النظام مرة أخرى استعداداته التام لمواجهة الشعب وقتل أفراد في سبيل بقائه، فهذه صفة

لازمة له، ثابتة فيه، تنبع من طبيعته ذاتها ولهذا فلا يستغرب من هذا النظام أن يغذي المناخ الذي تطور فيه الفكر المتطرف، وأن يتواطأ لخلق جماعات إرهابية ويتلاعب بها ويوظفها عن طريق اختراقها، أو يقتل باسمها، بهذه الطريقة أجهض التحول الديمقراطي في الجزائر. يركز النص 6 بشكل خاص على كم مجازر رهيبة على قرويين عزل متهمين بموالاتة الإرهاب في مناطق عسكرية بامتياز، حيث نسبت هذه الأعمال الإجرامية للجماعات الإسلامية، والمغزى من هذا التركيز، بالإضافة إلى تساوقه مع زمكانية النسق الحكائي، هو إبراز محرك هذه الأعمال الشنيعة، ألا وهو المال والمصالح المادية، على أساس أن هذه المنطقة، تيبازة، كما ورد في مقطع من الرواية، هي من أخصب مناطق الجزائر وأكثرها إثارة للأطماع، بداية بالغزاة الأجانب الذي توالوا على الجزائر. لقد أدى مناخ اللأمن وانعدام الاستقرار إلى انهيار أسعار الأراضي. «مضت لحظات صمت ثقيلة قبل أن أسألك:

- لماذا يريدونكم أن تتركوا أراضيكم؟

أجبتني بصوت غاضب:

- إنه سهل المتيجة يا صاحبي، أخصب ما في هذا الوطن. أرض يريدوها أهل الربط، يريدونها دون ملاك ولا ورثة، إنهم يحاولون منذ أمد أن يبيدونا.

- أهل الربط؟

- هنالك اثنان: الرسميون الكبار وفلاحون أمثالنا من غير أصحاب التعاضديات، هؤلاء معظمهم حملوا السلاح كحرس بلدي أو دفاع ذاتي، الكثير من الناس تعرفوا على بعضهم في أكثر من مجزرة.

- هي الأرض إذا؟

- أجل وإلا كيف تفسر كل هذه المجازر في منطقة تحوي أكبر تركز لقوات الأمن، تيبازة ثكنة كبيرة يا صديقي، وحتى المدن الكبرى المجاورة كالبليدة والبويرة

ذنبها الوحيد أنها جزء من النتيجة، هذه القرى التي مسحت من الوجود بأكملها، بناسها وحيواناتها وأمل في أن يسكنها آخرون»⁷

بالإضافة إلى الصراع المحوري الذي حددناه على مستوى الرواية ككل في صراع بين التاريخ الرسمي والتاريخ السري، تمثل رواية "ص" صراعاً دموياً عنيفاً على المصالح المادية الدنيئة، والواقع أن الرواية تعتمد إظهار هذا الصراع في عريه -إن صح التعبير- لتؤشر على غياب صراع إيديولوجي مفترض بين جماعات إسلامية ذات فكر ديني متطرف تريد تأسيس دولة إسلامية، ونظام جمهوري وضعي يحاول وضع اللبنة الأولى للديمقراطية، كل هذا جدل استغنى عنه الروائي طواعية بحيث أنه صار من المسلمات تقريباً، فالرواية لا تعبر عن صراع إيديولوجي بين طرفين يمتلكان رؤى متناحرة بل عن صراع على المصالح المادية عند أطراف، وصراع على مجرد البقاء عند أطراف أخرى.

وما يميز هذا النوع من الصراع تحريكه لآلة العنف الجهنمية، الذي يستخدم أداة للصراع ويذهب ضحيته ممن يذهب المدنيون العزل.

يحتل العنف حيزاً كبيراً في الرواية، ليس العنف المسلح وحده، فهو ينبثق من مستويات أولية على غرار العنف المؤسساتي والعنف الأسري، والواقع أن غياب الحب بمعناه الأبسط والأعم هو العنف الأكبر، وأرضية لكل درجات العنف التي تتراكب فوقه. لقد عاشت الشخصيتان الرئيسيتان، الشخصية الساردة والأخ الذي جند في القوات الخاصة، عانتا رفقة الأم من عنف أسري كان يمارسه الأب، ورد في مقطع من الرواية فيما نؤوله على أنه تفسير للعنف ما يلي: «أخي لم يكن جبناً أتذكره فقط طفلاً يكره الخريف مثلي.. أتذكر أماسينا وأصايبنا، يده وهي ترقص مع الريح وعيونه المخبأة خلف دموع أمي (...) يجلس مكاتفاً حزن أمي مطفاً العينين، منكمشاً وقد خنقه -مثلاً يخنقني- صقيع الخوف.

أبي كان يضرب أمي كثيرا، لسبب أو لآخر، يضربها بعنف، يمزق ثوب ضعفها ويخيط لها ثوبا آخر أشد ضعفا، ثم يكسر كل ما وجد أمامه ويخرج ليعود ليلا سائلا إياها أن تحضر العشاء. وكان أخي يلعن أبي ويلعن ضعف أمي، أما أنا فكنت العن نفسي كلما التقيتها..⁸. تربي الأخوان في أجواء العنف تلك، والتي تزرع في نفوس الأطفال منذاك عقد خوف تؤهلهم لاحقا للقيام بدورهم بممارسات عنيفة. يشكل العنف الأسري بنية تحتية للعنف الإجرامي، وإن تقنعت الجريمة في ثياب المؤسسة. ذات مذبحه يكتشف الجندي في القوات الخاصة أنه يقتل بلا بذرة ندم، دون أن يعلم من يقتل ولم يقتل، فهو فقط ينفذ الأوامر، «كان يقول لي عبر ليالي الثمالة التي كانت تجمعنا في عطلة القليلة الذليلة:

- إنها الحرب.

يؤكد دائما،

- حرب يقودها أمثال الذين يموتون كل يوم، فقراء يأوون من هم أشد فقرا، وأمثال هؤلاء لا أعلم من كتب عليهم قتالنا، حرب جبانة كل أحيائها وشهادتها جبناء (...). لحظة جلست في عقرها أحاول البكاء، أحاول كالمجنون أن أبكي، اخترقتني عيون المكاشفة وأنا أدرك قلبي لا يملك بذرة ندم.. الموت يا أخي تحسها ثقيلة كالحب، كالكراهية، كالشوق، كاليأس، غير أنني لم أشعر بثقل الموت وكأن ما أصنع بيدي أمر عادي، انبهرت، ابتسمت ثم انفجرت مقهقهقا أضرب بقدمي الرؤوس التي قطعت رافسا جنينا أو يد امرأة قابضة على حسرة.. حمت كالعقاب على كل صنيعي أتعرش، أسقط ليلوثني الدم الذي اختلط برائحة نتنة⁹.

لا يعدو الجندي أن يكون أداة في يد السلطة العسكرية، آلة قتل لا تفقه فيما تقتل، بأوامر من الأمن العسكري، وقد استغل في هذا الصراع بالإضافة إلى القوات الخاصة، بعض وسائل الإعلام الوطنية والأجنبية التي تم تجنيدها، «..جريدة واحدة

كانت كافية لإشعال نار الفتنة بادئ الأمر، أما اليوم فجّل الجرائد ملك لهؤلاء القتلة، يمررون عبرها ما يريدون..¹⁰ وتواطأ فيه كل من له مصلحة، سواء من السياسيين الجزائريين أو من الأنظمة الغربية، « حسين آيت أحمد "العالم بأسره يعلم من يقتل من في الجزائر، وفي العالم بأسره السياسة والمصالح أقوى بكثير من الإنسانية" »¹¹.

تصور المتخيل الروائي ضحايا الحرب القذرة ويصور إلى جانب ضحايا الصراع صراع الضحايا، فالجندي الذي التحق بالجيش لدرء الفقر والخوف، وخدم في القوات الخاصة منفذا الأوامر التي سيجر عليه رفضها الموت، هو الآخر ضحية. إن الشخصية الرئيسية تعاند في اعتبار أخيها ضحية، في حرب القاتل والمقتول فيها ضحايا، وهو ضحية لأنه قتل بدوره برصاصة بين عينيه في ظروف غامضة. في أحد مشاهد الرواية يعبر صراع الضحايا عن نفسه ضمن تصعيد الحوار بين الصديق الذي أبيدت عائلته على يد القوات الخاصة، وبين الشخصية التي كان أخوها ضمن هذه القوات، والتي تقاوم لدفع الجريمة عن أخيها وللاحتفاظ بذكراه نقية كما عرفته وهما أطفال يقصدان المدرسة البعيدة في الصباحات الباردة مشيا على الأقدام، ممسكان بيدي بعضهما البعض. « كنت تود قول كل شيء في لحظة خوف أتت على صمتنا، مسكتنا من ماض جمع طبيبتنا وقلت لك مسكينا:

-أخي ليس مجرما.

-أهلي كذلك.

-تقاوم، أضع.

-أخي ليس مجرما.

-أهلي كذلك.

-تقاوم، أقاوم،

- أرجوك.

- جميعهم مجرمون.

يحتلني صوتك، أستسلم.

- ما ذنب أهلي؟

- ما ذنب أخي؟

- من القاتل ومن القتيل؟

- كلاهما.

تعذبني وتحرق كل الذي بيننا جسرا يفيض انفجارا.

- أهلي فقط من قتل.

تشرذ وهي مقاومة لذكر أخي.

- لندفن موتانا.

- وكيف لنا أن نقبر الجريمة؟

وفي سرير الليلة الأخيرة في بيتك اعتذرت لك لاعنا أخي، واتجهت إلى العاصمة محتما براءة الجرم للمنبعثة من كل ركن فيها لأخفي رائحة أخي¹². تنهار مقاومة الشخصية الرئيسية لكن القطيعة ترتسم بينها وبين صديقها، كما سترتسم قطيعة أخرى بين الشخصية الرئيسية وصابرين التي قتل طفلها بيد أخ الشخصية نفسه.

الهوامش:

¹ - حبيب سويدية: "الحرب القذرة؛ شهادة ضابط سابق في القوات الخاصة بالجيش الجزائري 1992-2000"، ترجمة روز مخلوف، ورد للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 2003.

-
- ²-رواية "ص"، ص63.
- ³ -عبد الفتاح الحجمري: عتبات النص: البنية والدلالة، منشورات الرابطة، الدار البيضاء، ط1، 1996، ص 31.
- ⁴ -فيصل دراج: "الكتابة الروائية وتاريخ المقموعين"، مجلة الكرمل، 76-77، صيف وخريف 2003، ص 54.
- ⁵ -صلاح فضل: "تقنية الكولاج الروائي"، مجلة فصول، المجلد 11، العدد 2، صيف 1992، ص 333.
- ⁶ -رواية "ص"، ص 114.
- ⁷ -رواية "ص"، ص 165.
- ⁸ -رواية "ص"، ص 20 و 21.
- ⁹ -رواية "ص"، ص 14 و 15.
- ¹⁰ -رواية "ص"، ص 133.
- ¹¹ -رواية "ص"، ص 194.
- ¹² -رواية "ص"، ص 178 و 179.